مفهوم الشخص

يحيل مفهوم "الوضع البشري " على مجموعة الشروط و المحددات النفسية، الاجتماعية، والوجودية التي تحيط بالذات الإنسانية وتحدد طريقة تموضعها في العالم. و هي شروط مركّبة تتداخل فيها أبعاد متعددة ومتقاطعة.

ويتميز هذا الوضع بكونه وضعاً إشكالياً ومزدوجاً؛ فالإنسان كائن طبيعي خاضع لحتميات فزيائية و بيولوجية محددة ، له جسد ، غرائز و حاجات أولية. لكنه في نفس الوقت كائن فوق طبيعي يحمل أبعادا فكرية و نفسية و اجتماعية و تارخية. وتنكشف هذه الأبعاد من خلال إشكالات أساس :

- البعد الذاتي/النفسي: حيث يستشكل فيه الإنسان على ذاته ووعيه وهويته و قيمته و شروط وجوده(مفهوم الشخص.)
- البعد التفاعلي/العلائقي :حيث يدرك الإنسان أنه مع ذوات أخرى تشبهه وتختلف عنه، فتواجه بذلك وجودا اخر ، تحاول فهمه و معرفته و تحاول بناء علاقات انسانية معه (مفهوم الغير)
- البعد الزمني/التاريخي: و يحيل على سيرورة التحولات والأحداث الممتدة من الماضي للحاضرو كيفية تحكمها في مصير الإنسان (مفهوم التاريخ)

وتتأطر المجزوءة عبر إشكالات كبرى:

- كيف يتشكل الوجود الإنساني بين المحددات الذاتية والشروط الخارجيّة المركبة؟
- وهل الإنسان كائن يصنع وجوده بذاته وبوعيه، أم أنه محكوم بوجوده مع الآخرين وداخل صيرورة التاريخ التي تتجاوز إرادته الفردية؟

📜 تأطير لمفهوم الشخص

إذا كانت الكائنات الطبيعية تتحدد بخصائص فيزيائية بيولوجية حتمية، فإن الإنسان يتميز بكونه ذاتاً واعية، عاقلة، ومفكرة، قادرة على إدراك أفعالها ، ويمكنها التمييز بين الصواب و الخطأ و بين الخير والشر، لذلك فهي تتحمل المسؤولية الأخلاقية والقانونية عن وجودها و وجود الأخرين و وجود العالم. فالشخص اذن هو ذات حاملة لسمات الوعي و الحرية و الإرادة و المسؤولية.

ويتأسس التفكير في مفهوم الشخص من خلال ثلاثة إشكالات كبرى وهي:

1. الشخص والهوية :يتناول سر ثبا ت الذات ومطابقتها لنفسها عبر الزمن رغم التغيرات الجسدية والنفسية.
2. الشخص بوصفه قيمة :يتناول ما يمنح الإنسان كرامته وقيمته المطلقة بوصفه غاية في ذاته وليس مجرد وسيلة أو شيء يُباع ويُشترى.
3. الشخص بين الضرورة والحرية :يتناول حدود وجود الشخص بين الخضوع للحتميات والضرورات (النفسية والاجتماعية والطبيعية) وبين قدرته على الاختيار وصنع ذاته بحرية.

المحور الأول: الشخص والهوية

المفارقة الفلسفية (أسطورة «سفينة ثيسيوس»)

يُحكى أن الإغريق حافظوا على سفينة البطل "ثيسيوس" في الميناء تكريماً له. ومع مرور السنوات، كانت ألواح الخشب تُبلى وتتآكل، فيقوم العمال باستبدال كل لوح تالف بلوح خشب جديد ، حتى جاء يوم تم فيه استبدال جميع ألواح السفينة الأصلية لوحاً بلوح.

تضعنا هذه التجربة أمام مفارقة فلسفية:

- من جهة أولى :تبدو السفينة هي نفسها السفينة الأصلية، لأن شكلها، ووظيفتها، واسمها، وتاريخها الرمزي استمر ثابتاً ولم يتغير لدى الناس.
- من جهة ثانية :تبدو سفينة مختلفة كلياً، لأن مادتها الفيزيائية (الألواح الخشبية) أصبحت جديدة تماماً ولم يعد فيها جزيء واحد من الخشب القديم الذي أبحر به ثيسيوس.

إسقاط المفارقة على الإنسان :الإنسان يشبه تماماً هذه السفينة؛ فخلايا جسده تتجدد وتتغير باستمرار عبر السنين (الطفولة، الشباب، الشيخوخة)، وتجاربه النفسية وأفكاره وتصوراته تتغير وتتبدل مع الزمن. ومع ذلك، يظل الشخص يشعر بأنه هو هو نفس الذات ونفس الشخص عبر الزمن. (هو هو أي الهوية = الثبات و الوحدة و الإستمرار و التفرد) (الهوية # الجسد)

- على ماذا يتأسس ثبات الشخص ومطابقته لذاته؟
- هل تتحدد الهوية الشخصية بعنصر ثابت ومطلق (كالروح، أو العقل/الكوجيتو، أو الطبع)؟ أم أنها تتشكل وتتسع عبر عناصر متغيرة ومكتسبة (كالذاكرة، والشعور الحسي، والارتباط بالجسد والتجربة المعيشة)؟
- وبعبارة أخرى: هل هوية الشخص وحدة بسيطة وجوهرية ثابته، أم أنها تركيب متجدد يتغير باستمرار؟

تحليل نص جون لوك: الهوية و الشعور

النص :

لكي نهتدي إلى ما يكوّن الهوية الشخصية لابد لنا أن نتبين ما تحتمله كلمة الشخص من معنى. فالشخص،تعريف فيما أعتقد، كائن مفكر عاقل قادر على التعقل والتأمل، وعلى الرجوع إلى ذاته باعتبار أنها مطابقة لنفسها، وأنها هي نفس الشيء الذي يفكر في أزمنة وأمكنة مختلفة. تأكيد و وسيلته الوحيدة لبلوغ ذلك هو الشعور الذي يكون لديه عن أفعاله الخاصة. التفسير وهذا الشعور لا يقبل الانفصال عن الفكر، بل هو، فيما يبدو لي، ضروري وأساسي تماما بالنسبة للفكر، مادام لا يمكن لأي كائن [بشري]، كيفما كان، أن يدرك إدراكا فكريا دون أن يشعر أنه يدرك إدراكا فكريا .

مثال : عندما نعرف أننا نسمع أو نشم أو نتذوق أو نحس بشيء ما أو نتأمله أو نريده، فإنما نعرف ذلك في حال حدوثه لنا. إن هذه المعرفة تصاحب على نحو دائم إحساساتنا وإدراكاتنا الراهنة، وبها يكون كل واحد منا هو نفسه بالنسبة إلى ذاته، وفي هذه الحالة لا نأخذ في الاعتبار ما إذا كانت الذات نفسها تبقى مستمرة في الجوهر

نفسه أو في جواهر متنوعة. النفي إذ لما كان الشعور يقترن بالفكر على نحو دائم، وكان هذا هو ما يجعل كل واحد هو نفسه، ويتميز به، من ثم، عن كل كائن مفكر آخر، فإن ذلك هو وحده ما يكون الهوية الشخصية الاستنتاج أو ما يجعل كائنا عاقلا يبقى دائما هو هو. وبقدر ما يمتد ذلك الشعور بعيدا ليصل إلى الأفعال والأفكار الماضية، بقدر ما تمتد هوية ذلك الشخص وتتسع. فالذات الحالية هي نفس الذات التي كانت حينئذ، وذلك الفعل الماضي إنما صدر عن الذات نفسها التي تدركه في الحاضر .

جون لوك، مقالة في الفهم البشري، 1994 ص : 264-265

تأطير النص

النص مقتطف من كتاب "مقالة في الفهم البشري" للفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632-1704)، أحد أبرز فلاسفة التجريبية الحديثة. وقد انشغل لوك بالإجابة عن سؤال الهوية الشخصية في سياق النقاش الفلسفي الذي عرفته الفلسفة الحديثة حول طبيعة الذات الإنسانية وأساس وحدتها واستمرارها عبر الزمن. مخالفًا التصور الذي يربط الهوية بالجوهر أو بالنفس الثابتة، ومعتبرًا أن أساسها الحقيقي هو الشعور.

إشكالية النص

على أي أساس تقوم الهوية الشخصية؟ وهل تتحدد بالجوهر الثابت، أم بالشعور والوعي الذي يصاحب الفكر ويضمن استمرارية الذات عبر الزمن؟
كيف يحافظ الإنسان على هويته رغم تغير الزمن؟

أطروحة النص

يدافع جون لوك عن أطروحة مفادها أن الهوية الشخصية لا تقوم على وحدة الجوهر أو ثبات النفس، وإنما تقوم على الشعور أو الوعي الذي يصاحب الفكر باستمرار، ويجعل الشخص يدرك أنه هو نفسه في الماضي والحاضر. فالذاكرة تحافظ على ترابط الإحساسات و التجارب لذلك يشعر الشخص بوحدة هويته و استمرارها عبر الزمن.
(الشعور = الفكر : ليس جوهريا ، و ليس مفارقا ، هو صفحة بيضاء + التجربة : الإحساسات النفسية و الجسدية + الذاكرة : تحفظ التجارب في سلسة ممتدة عبر الزمن)

المفاهيم المركزية للنص

الشخص :كائن عاقل ومفكر يمتلك القدرة على التفكير والتأمل وإدراك ذاته باعتبارها هي نفسها عبر الزمن.

الفكر: احالة على الذات المفكرة عند ديكارت و هو ليسا جوهريا او مفارقا عند لوك.

الشعور :وعي الإنسان بأفكاره وأفعاله ، وهو يمتد عبر الزمن بفضل الذاكرة.

الذاكرة : تؤدي الذاكرة عند جون لوك دورًا أساسيًا في امتداد الشعور عبر الزمن، مما يسمح للشخص بالتعرف على نفسه باعتباره هو نفسه الذي قام بالأفعال الماضية.

الأفعال : و يقصد بها التجارب و الإحساسات.

حجج النص

حجة اقتران الشعور بالفكر

يرى لوك أن كل عملية تفكير يصاحبها شعور بها، فلا يمكن للإنسان أن يفكر دون أن يدرك أنه يفكر. إذن: الفكر يصاحبه الشعور دائمًا. كما يصاحبه دائما احساس ما (السمع ، الشم ، التأمل ....)

-حجة استمرارية الشعور من خلال الذاكرة : فالوعي بالحاضر وربطه بالماضي هو الذي يمنح الذات وحدتها.

-حجة نفي أهمية الجوهر : يرفض لوك اعتبار الجوهر أساس الهوية الشخصية.

الأساليب الحجاجية في النص

التعريف :الشخص كائن مفكر عاقل....

التفسير :شرح و تفسير العلاقة بين الفكر والشعور

المثال :السمع، الشم، الذوق، الإحساس، التأمل، الإرادة. يبرز المثال اتصال الشعور بالفكر.

الاستنتاج: " فإن ذلك هو وحده ما يكون الهوية الشخصية."

النفي والإثبات :لا تقوم الهوية على الجوهر بل على الشعور، ويهدف إلى دحض تصور وإثبات تصور بديل.

تركيب عام للنص :

أساس الهوية عند جون لوك هي : الشعور = الفكر : ليس جوهريا ، و ليس مفارقا للجسد، هو صفحة بيضاء + التجربة : الإحساسات النفسية و الجسدية و هي مصدر المعرفة + الذاكرة : تحفظ التجارب في سلسلة ممتدة عبر الزمن فيشعر الشخص بوحدة هويته

المناقشة :

ديكارت : الفكر أو العقل ، جوهري ، مفارق للجسد ، غير مادي ، و هو مصدر المعرفة (الحقائق الرياضية و الهندسية ، الحقائق الفزيائية أو العالم هي كذلك حقائق رياضية و هي توجد في العقل قبليا و بالتالي فمانحها هو خالق العالم) ..... أنا أشك ، أنا أفكر، أنا موجود و هي مفارقة و منفصلة عن الجسد ، لذلك تبقى ثابتة بينما يتغير الجسد و احساساته الحسية و النفسية، و هي تستمر حسب ديكارت حتى في حالة النوم الدائم ، و هي لا تفنى.

يختلف ديكارت مع جون لوك في تحديد أساس هوية الشخص. فإذا كان لوك يربط هوية الشخص بالشعور والذاكرة، فإن ديكارت يجعل أساسها الذات المفكرة أو الجوهر المفكر (الأنا) . فالإنسان، في نظره، هو ذات مفكرة لا يتوقف وجودها على الجسد ولا على تعاقب الذكريات، بل تقوم هويتها على وحدة الذات وبساطتها واستمرارها عبر الزمن ، بل إن استمرارية هذه للذات تكون حتى في حالة النوم الدائم. (أنا أشك ، أنا أفكر، أنا موجود و هي مفارقة و منفصلة عن الجسد ، لذلك تبقى ثابتة بينما يتغير الجسد و احساساته الحسية و النفسية).

ديفيد هيوم :

أساس الهوية = الإحساسات + الذاكرة

يقدم ديفيد هيوم نقدًا جذريًا لكل من ديكارت وجون لوك. فهو ينكر وجود ذات ثابتة أصلًا، ويرى أننا عندما نفتش داخل أنفسنا لا نعثر إلا على سلسلة متغيرة من الانطباعات والإدراكات والأحاسيس. أما "الهوية الشخصية" فهي ليست إلا اعتقادًا أو بناءً من صنع المخيلة، ينشأ من تعاقب الإدراكات وتشابهها وترابطها، فيتوهم العقل وجود ذات واحدة مستمرة، بينما هي في الواقع ليست سوى *حزمة من الإدراكات*. (كان هيوم ماديا صرفا ، فهو ينكر وجود الجوهر المفارق ، و يرى أن الهوية ليست سوى تعاقب انطباعات الجسد ، و الذاكرة تحفظ هذه الأنطباعات)

بركلي : العالم عبارة عن صور و انطباعات في الفكر ، و العالم المادي قد لا يوجد.

آرثر شوبنهاور

النقد :

أغلب أفعال الإنسان غير عاقلة ، و العقل كما حدده ديكارت لا يمكن أن يكون أساس لهوية الشخص.

الجسد و الإحساسات متغيرة ، و لا يمكن لما هو متغير أن يكون اصلا لما هو ثابث.

قد يفقد الشخص ذاكرته ، و لن تحتفظ عندئذ بهذه الإحساسات و التجارب. (ضياع الهوية)

أساس هوية الشخص هي ارادة الوجود و هي قوة عمياء غير عاقلة (لا غاية لها و لا معنى فهي عبثية) تقود الإنسان الى تلبية مطالبه الغريزية. خصوصا غريزة الجنس التي تدفع الكائنات الى نسخ نفسها و المحافظة على استمرار وجودها. فالإرادة هي المحدد لهوية الشخص. و هي الشيء الثابث و الجوهري في الإنسان. غير أن الإنسان يعيش التعاسة مع متطلبات الإرادة ، لذلك يدعو شوبنهاور الإنسان الى الزهد و التغلب على قوى الإرادة.

جول لاشولييه

يُعرّف الفيلسوف الفرنسي جول لاشولييه هوية الشخص من منظور فلسفي تركيبي يجمع بين الوحدة الفكرية النفسية والوحدة الأخلاقية. يقوم تعريف لاشولييه لهوية الشخص على الخصائص التالية:

1. وحدة الطبع والمزاج :(L'unité du caractère) هي ما يمنح النفس استمراريتها النفسية والعملية . الطبع بالنسبة للاشولييه هو الثبات في الميول، والرغبات، وأسلوب التفاعل مع العالم. بدون هذا الثبات في المزاج، يصبح الفرد شخصاً جديداً في كل لحظة، وتتشتت ذكرياته.
2. الوحدة الفكرية :(L'unité intellectuelle) قدرة العقل على ربط الأفكار والتمثلات وتجميعها تحت "أنا" واحد ومستمر عبر الزمن.
3. الوحدة الأخلاقية :(L'unité morale) تكتمل الهوية بالوعي والمسؤولية والضمير، وهي أعلى درجات "وحدة الذات."

يرى جول لاشولييه أن وحدة الشخص لا يمكن تفسيرها بمجرد تعاقب الذكريات، لأن الذكريات نفسها تفترض وجود ذات موحدة تستقبلها وتربط بينها.

ولهذا يجعل أساس الهوية هو وحدة الأنا المفكرة التي تنظم مختلف الخبرات النفسية وتمنحها الانسجام والاستمرار. فالوعي ليس مجرد تجميع لحالات نفسية متفرقة، بل نشاط عقلي يوحد التجارب في ذات واحدة.

ومن هذا المنطلق ينتقد لاشولييه موقف جون لوك، لأن جعل الذاكرة أساس الهوية يؤدي إلى جعل الهوية رهينة الحفظ والنسيان، بينما وحدة الذات شرط سابق لإمكان الذاكرة نفسها.

خامسا: سيغموند فرويد

يقدم سيغموند فرويد تصورًا مختلفًا للهوية الشخصية، إذ يربطها بالبنية النفسية اللاواعية أكثر من ربطها بالوعي أو الذاكرة المباشرة. فالشخصية، في نظره، تتكون من تفاعل ثلاث قوى نفسية :الهو (Id) والأنا (Ego) والأنا الأعلى.(Superego)

فالهوية ليست وحدة شفافة كما تصورها الفلسفات العقلانية، بل هي بناء نفسي ديناميكي تحكمه صراعات داخلية بين الرغبات اللاواعية والرقابة الأخلاقية والواقع الخارجي. ومن هنا فإن ما يعتقده الفرد عن نفسه لا يعكس بالضرورة حقيقته النفسية العميقة.

كما أن فرويد يبين أن جزءًا كبيرًا من سلوك الإنسان وذكرياته يتشكل في اللاوعي، أي في مستوى لا يخضع للوعي المباشر، مما يجعل الذاكرة الواعية غير كافية لتأسيس الهوية الشخصية كما ذهب لوك.

وبذلك يعيد فرويد تعريف الهوية بوصفها عملية نفسية متحركة وليست جوهرًا ثابتًا، ويكشف أن الذات ليست سيدًا كاملًا لذاته، بل محكومة بقوى لاواعية تشكل استمراريتها وتغيرها في آن واحد.

خلاصة المناقشة

يتبين من خلال هذه المواقف أن جون لوك جعل الوعي والذاكرة أساس الهوية الشخصية، بينما ردها ديكارت إلى النفس المفكرة، وأنكر هيوم وجود ذات ثابتة أصلًا، وأرجع شوبنهاور الحقيقة إلى الإرادة، واعتبر لاشولييه أن وحدة الأنا شرط للذاكرة نفسها، في حين كشف فرويد عن البعد اللاواعي في تشكيل الهوية.

وهكذا يتضح أن سؤال الهوية الشخصية ظل من أكثر الأسئلة الفلسفية تعقيدًا، لأنه يمس طبيعة الإنسان من حيث هو ذات واعية، نفسًا وجسدًا، وذاكرةً وتاريخًا.

تركيب عام

تكشف المناقشة الفلسفية حول الهوية الشخصية عن تعدد الأجوبة بتعدد التصورات التي قدمها الفلاسفة لطبيعة الذات الإنسانية. فقد جعل جون لوك أساس الهوية الشخصية هو الشعور أو الوعي الممتد بواسطة الذاكرة، معتبراً أن الشخص يظل هو نفسه ما دام قادرًا على استحضار أفعاله وأفكاره الماضية وربطها بحاضره، ولذلك رفض أن يكون الجوهر أو النفس الثابتة أساس الهوية.

غير أن هذا التصور أثار عدة اعتراضات فلسفية. فقد رأى رينيه ديكارت أن الهوية لا تقوم على الذاكرة، لأنها قد تضعف أو تزول، بينما تبقى الذات موجودة. ولذلك جعل أساس الهوية هو النفس المفكرة أو الجوهر العاقل الذي يضمن وحدة الشخص واستمراره، وهو ما يعبر عنه الكوجيتو» *أنا أفكر إذن أنا موجود*.«

أما ديفيد هيوم فقد وجه نقدًا أكثر جذرية، إذ أنكر وجود ذات ثابتة أصلًا، واعتبر أن الإنسان لا يجد في خبرته الداخلية سوى تعاقب مستمر للإدراكات والانطباعات، وأن ما يسمى بالهوية الشخصية ليس إلا اعتقادًا تولده المخيلة نتيجة ترابط هذه الإدراكات، وبذلك رفض كل من تصور ديكارت القائم على الجوهر، وتصور لوك القائم على الوعي والذاكرة.

ومن جهته، لم يجعل آرثر شوبنهاور أساس الهوية في الوعي ولا في الذاكرة، بل في الإرادة بوصفها الحقيقة الميتافيزيقية العميقة التي تقوم وراء جميع مظاهر الإنسان. فالوعي والذاكرة والعقل ليست سوى مظاهر للإرادة، أما الشخصية الفردية فتظل متغيرة وخاضعة لشروط الزمان والمكان.

في حين اعتبر جول لاشولييه أن الذاكرة لا يمكن أن تؤسس الهوية، لأنها تفترض مسبقًا وجود ذات موحدة تستقبل الخبرات وتنظمها. لذلك جعل أساس الهوية هو وحدة الأنا المفكرة التي تمنح مختلف التجارب النفسية انسجامها واستمرارها، معتبراً أن وحدة الذات شرط لإمكان الوعي والذاكرة، لا نتيجة لهما.

تركيب

وهكذا يتبين أن سؤال الهوية الشخصية ظل سؤالًا فلسفيًا مفتوحًا؛ فقد ردها ديكارت إلى الجوهر المفكر، وربطها لوك بالوعي والذاكرة، وأنكر هيوم وجودها الثابت، وأرجعها شوبنهاور إلى الإرادة، بينما جعلها لاشولييه قائمة على وحدة الطبع. ويكشف هذا التعدد أن الهوية الشخصية ليست مفهومًا بسيطًا، بل قضية فلسفية معقدة تتقاطع فيها أبعاد الوعي، والذاكرة، والنفس، والإرادة، ووحدة الذات، مما يجعلها موضوعًا دائمًا للنقاش الفلسفي.

المحور الثاني : الشخص بوصفه قيمة

الوضعية المشكلة : ينص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن العبودية و باقي أشكال التمييز مرفوضة. غير أن عمالة الأطفال في العديد من الدول ما زالت مستمرة الى اليوم. و منها أطفال مزارع الكاكاو في ساحل العاج الذي تقدر الأمم المتحدة عددهم بأزيد من مليون و نصف طفل يزودون الشركات العالمية بهذا المنتج الذي يستخدم في صنع الشوكولاتة ، و يعملون في ظروف قاسية. ما يطرح السؤال عن استمرارية العبودية في العصر الحالي.

تضعنا هذه الوضعية المشكلة أمام مفارقة ، فالدول التي تدعي حقوق الإنسان هي التي تسمح بإستمرار هذه العبودية عبر السماح لشركاتها بإستغلال الاطفال لصالح الإنتاج. ما يجعلنا نطرح الأسئلة الإشكالية التالية : هل يجوز استغلال الإنسان كمجرد و سيلة لغايات غير انسانية. (الإنتاج الرأسمالي)

ألا يملك الإنسان قيمة و غاية عليا ؟ و من أين يستمد قيمته و كرامته؟

تحليل : نص إيمانويل كانط قيمة الشخص

النص :

يوجد الإنسان وبوجه عام كل كائن عاقل، بوصفه غاية في ذاته، وليس مجرد وسيلة يمكن أن تستخدمها هذه الإرادة أو تلك وفق هواها. ففي جميع هذه الأفعال، كما في تلك التي تخص ذاته والتي تخص الكائنات العاقلة الأخرى، يجب دائما اعتباره غاية في ذات الوقت. إن جميع موضوعات الميول ليس لها إلا قيمة مشروطة، ذلك

لأنه لو كانت الميول والحاجات المشتقة منها غير موجودة لكان موضوعها بدون قيمة. لكن الميول ذاتها، بوصفها مصادر للحاجة، لها قدر قليل من القيمة المطلقة التي تمنحها الحق في أن تكون مرغوبة لذاتها، وأكثر من ذلك، ينبغي على كل كائن عاقل أن يجعل أمنيته الكلية هي التحرر التام منها .ومن هنا فقيمة جميع الموضوعات التي نكتسبها بفعلنا هي دائما قيمة مشروطة. فالموجودات التي يعتمد وجودها، والحق يقال، لا على إرادتنا، بل على الطبيعة، مادامت موجودات محرومة من العقل، ليس لها مع ذلك إلا قيمة نسبية، قيمة الوسائل، وهذا هو السبب الذي من أجله يدعوها المرء أشياء؛ بينما الموجودات العاقلة تدعى أشخاصا، ذلك أن طبيعتها تدل على من قبل بوصفها غايات في ذاتها، أعني شيئا لا يمكن استخدامه ببساطة كوسيلة، شيء يحد بالتالي من كل قدرة على التصرف حسب هوانا (وهو موضوع احترامنا تلكم إذن ليست مجرد غايات ذاتية، يملك وجودها، من حيث هو معلول لفعلنا، قيمة بالنسبة إلينا، بل هي غايات موضوعية أعني أشياء وجودها غاية في ذاته، بل وتكون غاية بحيث لا يمكن أن نستبدل بها أية غاية أخرى. ويلزم أن تقوم بخدمتها الغايات الموضوعية، بوصفها مجرد وسائل (...) وعلى ذلك، فإذا كان لابد للعقل من مبدأ عملي أسمى، كما لابد للإدارة الإنسانية من أمر مطلق، فإن هذا المبدأ يلزم أن يكون بحيث يكون بالضرورة، عند تمثل ما هو غاية في ذاته، غاية لكل إنسان، فهو يشكل مبدأ موضوعيا للإدارة، ويمكن بالتالي أن يكون بمثابة قانون عملي كلي. وأساس هذا المبدأ هو التالي : إن الطبيعة العاقلة توجد كغاية في ذاتها .

إمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة فيكتور دلبوس، دولاغراف، 1969، ص 149 -148

تأطير النص

النص مقتطف من كتاب »أسس ميتافيزيقا الأخلاق «للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724-1804)، أحد أبرز فلاسفة العصر الحديث ومؤسس الفلسفة النقدية. ويبحث كانط في هذا النص عن الأساس الذي يجعل الشخص الإنساني يمتلك قيمة أخلاقية مطلقة، مميزًا بين الإنسان بوصفه شخصًا عاقلًا وبين الأشياء التي لا تعدو أن تكون وسائل للاستعمال. ويؤسس بذلك لمبدأ الكرامة الإنسانية الذي يعد من أهم مبادئ الفلسفة الأخلاقية الحديثة.

إشكالية النص

يعالج النص إشكالية قيمة الشخص، ويمكن صياغتها في السؤال الآتي:

على أي أساس تقوم قيمة الشخص؟ وهل يستمد الإنسان قيمته مما يملكه أو يحققه، أم من كونه كائنًا عاقلًا يشكل غاية في ذاته؟

ويتفرع عن هذا الإشكال عدد من الأسئلة الفرعية:

- ما المقصود بالشخص عند كانط؟
- ما الفرق بين الشخص والشيء؟
- لماذا يعد الإنسان غاية في ذاته وليس مجرد وسيلة؟
- ما العلاقة بين الكرامة الإنسانية والعقل؟

أطروحة النص

يدافع كانط عن أطروحة مفادها أن الشخص الإنساني يمتلك قيمة أخلاقية مطلقة لأنه كائن عاقل، ولذلك يجب معاملته دائمًا بوصفه غاية في ذاته، وليس مجرد وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين.

ويميز كانط بين الأشياء التي لا تمتلك إلا قيمة نسبية لأنها وسائل قابلة للاستعمال والاستبدال، وبين الأشخاص الذين يتمتعون بكرامة مطلقة تمنع تحويلهم إلى مجرد أدوات لخدمة أغراض الغير.

المفاهيم المركزية للنص

الشخص :كائن عاقل حر يمتلك إرادة مستقلة، ويستحق الاحترام لذاته لأنه غاية في ذاته.

الغاية في ذاتها :ما يمتلك قيمة مطلقة ولا يجوز استعماله مجرد وسيلة لتحقيق أغراض أخرى. اي الغاية المرجوة من كل انسان أن يكون شخصا عاقلا و مسؤولا .

الوسيلة :ما يستعمل لتحقيق غاية أخرى، وتكون قيمته نسبية وقابلة للاستبدال.

الكرامة :القيمة الأخلاقية المطلقة التي يتمتع بها كل شخص عاقل، والتي تمنع معاملته كشيء.

الشيء :موجود لا يملك عقلًا ولا إرادة حرة، ولذلك تكون قيمته مجرد قيمة استعمالية أو نفعية.

الإرادة :القدرة العقلية على اختيار الأفعال وفق القانون الأخلاقي.

الأمر المطلق : هو أمر جازم يمليه العقل ، و على الشخص واجب الخضوع له ، وفق مبدأ عامل نفسك و الأخرين دائما و أبدا كغاية و ليس كوسيلة.

حجج النص

اعتمد كانط عدة حجج لإثبات أطروحته، أهمها:

-1حجة التمييز بين الشخص والشيء

ميز كانط بين الموجودات العاقلة والموجودات غير العاقلة؛ فالأشياء لا تمتلك إلا قيمة نسبية لأنها وسائل، بينما الأشخاص يمتلكون قيمة مطلقة لأنهم كائنات عاقلة.

إذن :الشخص يختلف عن الشيء لأنه غاية في ذاته.

-2حجة القيمة المشروطة والقيمة المطلقة

يرى كانط أن جميع الأشياء التي يرغب فيها الإنسان تظل قيمتها مشروطة بالحاجات والميول، فإذا زالت الحاجة زالت قيمتها. أما الشخص فقيمته لا ترتبط بأي منفعة، بل تنبع من طبيعته العاقلة.

إذن :كرامة الإنسان مستقلة عن المنفعة أو المصلحة.

-3حجة احترام الشخص

بما أن الإنسان غاية في ذاته، فلا يجوز استعماله مجرد وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين، بل ينبغي احترامه في جميع الأحوال.

إذن :احترام الشخص واجب أخلاقي مطلق.

-4حجة القانون الأخلاقي

يؤكد كانط أن العقل يفرض مبدأ أخلاقيًا كليًا، وهو أن يعامل كل إنسان نفسه وغيره باعتباره غاية في ذاته.

إذن :الكرامة الإنسانية أساس القانون الأخلاقي الكوني.

الأساليب الحجاجية في النص

اعتمد النص مجموعة من الأساليب الحجاجية، من أبرزها:

التعريف :تعريف الشخص بوصفه كائنًا عاقلًا وغاية في ذاته.

المقارنة :المقارنة بين الأشخاص والأشياء لإبراز اختلاف القيمة بينهما.

التعليل :تعليل قيمة الشخص بامتلاكه العقل والإرادة الحرة.

النفي والإثبات :نفي أن يكون الشخص مجرد وسيلة، وإثبات أنه غاية في ذاته.

الاستنتاج :استخلاص مبدأ أخلاقي عام يوجب احترام الإنسان دائمًا.

تركيب عام

يؤسس إيمانويل كانط تصورًا أخلاقيًا يجعل قيمة الشخص قائمة على العقل والحرية، لا على المنفعة أو المكانة الاجتماعية أو الخصائص الجسدية. فالإنسان يمتلك كرامة مطلقة لأنه كائن عاقل قادر على التشريع الأخلاقي لنفسه، ولذلك يجب احترامه دائمًا بوصفه غاية في ذاته، وعدم معاملته مجرد وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين. وقد أصبح هذا التصور أحد الأسس الفلسفية لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية في الفكر الأخلاقي والقانوني الحديث، رغم أنه تعرض لمناقشات لاحقة، خاصة من قبل الفلاسفة الذين رأوا أن قيمة الشخص لا تقوم فقط على العقل، بل تتحدد أيضًا من خلال علاقته بالغير، أو بالاعتراف المتبادل، أو بأبعاده الاجتماعية والتاريخية.

موضوع :

يُعتبر الشخص قيمة عليا في حياة الإنسان، إذ يُنظر إليه باعتباره كائنا يتميز بالعقل والحرية والكرامة، مما يجعله غاية في ذاته لا مجرد وسيلة لتحقيق غايات الآخرين. غير أن هذه القيمة تطرح مفارقة أساسية؛ فإذا كان الشخص يستمد قيمته من كونه إنسانا، فإن الواقع يكشف أن قيمته قد ترتبط أحيانا بمكانته الاجتماعية أو قدراته أو ما يحققه من إنجازات، وهو ما قد يؤدي إلى التمييز بين الأشخاص والمساس بكرامتهم. فهل يستمد الشخص قيمته من كونه غاية في ذاته، أم من المنفعة التي يقدمها للآخرين؟ وهل قيمة الشخص مطلقة وثابتة أم نسبية ومتغيرة؟ وعلى أي أساس يمكن تبرير قيمة الشخص: أبعقله وحريته أم بكرامته الإنسانية؟

ينطلق النص (و هو للفيسلوف الالماني ايمانويل كانط) من فكرة أساسية مفادها أن الإنسان يمتلك قيمة خاصة تجعله مختلفا عن الأشياء التي تحيط به؛ فالأشياء يمكن أن تكون نافعة لنا، ويمكن أن نرغب فيها أو نستعملها لتحقيق أغراض معينة، لكن الشخص الإنساني لا ينبغي أن يُعامل بالطريقة نفسها التي نعامل بها الأشياء. فالإنسان يمتلك العقل والقدرة على التفكير والاختيار، ويستطيع أن يحدد أفعاله انطلاقا من مبادئ أخلاقية، ولذلك فهو ليس

مجرد أداة لتحقيق أهداف الآخرين، بل ينبغي احترامه باعتباره غاية في ذاته. ومعنى أن يكون الشخص غاية في ذاته هو أن له قيمة تستحق الاحترام لذاته، بصرف النظر عن المنفعة التي يمكن أن يقدمها أو المكانة التي يحتلها أو النجاح الذي يحققه. ويعبر كانط عن هذه الفكرة في إحدى صيغ الأمر الأخلاقي المطلق، حين يدعو إلى معاملة الإنسانية، في شخص الذات وفي شخص الآخر، باعتبارها غاية دائما، لا باعتبارها مجرد وسيلة أبدا. ولتوضيح ذلك، يمكن أن نأخذ مثال العامل الذي يؤدي عملا داخل مؤسسة؛ فإذا كان صاحب المؤسسة يحترم حقوقه، ويضمن له أجرا عادلا، ويعامله باعتباره إنسانا له كرامته ومصالحه الخاصة، فإنه لا يختزله في الوظيفة التي يؤديها. أما إذا استغله، أو خدعه، أو عرّض سلامته للخطر من أجل زيادة الأرباح، فإنه يعامله كما لو كان مجرد أداة للإنتاج، متجاهلا قيمته الإنسانية. ولا يعني موقف كانط أن استعمال الآخرين لتحقيق بعض الأغراض ممنوع بصورة مطلقة، لأن الحياة الاجتماعية تقوم على التعاون وتبادل الخدمات؛ فنحن نستعين بالطبيب للعلاج، وبالمعلم للتعلم، وبالعامل لإنجاز أعمال معينة. لكن المرفوض هو أن يتحول الشخص إلى مجرد وسيلة، أي أن تُستغل قدراته دون احترام إرادته وحقوقه وكرامته. وهكذا، لا تتحدد قيمة الشخص بما يقدمه للآخرين، وإنما بما يمتلكه من قيمة إنسانية تجعل احترامه واجبا أخلاقيا.

يساعدنا موقف كانط على التمييز بين نوعين من القيمة: القيمة المطلقة والقيمة المشروطة. فالقيمة المطلقة هي القيمة التي لا تتوقف على شرط خارجي، ولا ترتبط بتحقيق منفعة معينة أو امتلاك صفة قابلة للزيادة والنقصان، بل تستحق الاحترام لذاتها. وفي التصور الأخلاقي الكانطي، ترتبط هذه القيمة بالإنسان من حيث كونه كائنا عاقلا قادرا على الاختيار والتصرف وفق مبادئ أخلاقية؛ فالإنسان لا يفقد كرامته لأنه فقير أو مريض أو عاجز عن العمل أو لم يحقق نجاحا في حياته. فلو اعتبرنا أن قيمة الشخص تتحدد بما ينتجه من ثروة أو بما يقدمه من خدمات، لوجب علينا أن نمنح الأشخاص المنتجين قيمة أكبر من قيمة العاجزين أو المحتاجين، وهو ما يؤدي إلى جعل الكرامة الإنسانية خاضعة لمعايير المنفعة والمصلحة. أما القيمة المشروطة فهي القيمة التي تتوقف على غاية أو وظيفة أو منفعة معينة؛ فالمال، مثلا، تكون له قيمة لأنه يمكننا من شراء حاجاتنا، والأداة تكون ذات قيمة لأنها تساعدنا على إنجاز عمل، كما يمكن أن تكون لمهارة الشخص قيمة عملية بسبب ما تتيحه من إمكانات في مجال معين. وقد تتغير هذه القيمة بتغير الظروف؛ فالمال قد يفقد جزءا من قدرته الشرائية، والأداة قد تصبح غير نافعة إذا تغيرت الحاجة إليها، والمهارة المهنية قد تقل أهميتها مع تطور وسائل الإنتاج. ويمكن أن نميز هنا بين قيمة الشخص في ذاته وقيمة بعض صفاته أو أدواره؛ فالشخص الذي يمتلك خبرة طبية كبيرة تكون لخبرته قيمة خاصة في المجال الصحي، لكن هذه القيمة العملية لا تجعل كرامته الإنسانية أكبر من كرامة شخص لا يمتلك تلك الخبرة. وبالمثل، لا ينبغي أن تصبح قيمة الإنسان رهينة جماله أو قوته أو ذكائه أو ثروته أو قدرته على المنافسة. ومن ثم، فإن التمييز بين القيمة المطلقة والقيمة المشروطة يكشف أن ما قد يتغير في الإنسان من قدرات ومؤهلات ومكانة اجتماعية لا ينبغي أن يؤدي إلى إنكار قيمته الإنسانية الأساسية أو الانتقاص من كرامته.

تقوم العلاقة بين هذه المفاهيم على أن اعتبار الشخص غاية في ذاته هو التعبير الأخلاقي عن الاعتراف بقيمته المطلقة، في حين أن التعامل معه باعتباره مجرد وسيلة يجعله خاضعا لمنطق القيمة المشروطة، حيث يُقاس بما يحققه من منفعة أو بما يقدمه من خدمات. فعندما نحترم الشخص لكونه إنسانا، فإننا نعترف بأن له قيمة لا تتوقف على ما يمكن أن نحصل عليه منه؛ أما عندما نحترمه فقط لأنه غني أو قوي أو ناجح أو مفيد لنا، فإننا لا نحترم قيمته الإنسانية في ذاتها، بل نحترم المنفعة التي يوفرها لنا، ولذلك قد يتغير موقفنا منه عندما يفقد تلك المنفعة. ويمكن توضيح ذلك بمثال شخص يتعرض لحادث يجعله عاجزا عن العمل؛ فإذا كانت قيمته في نظر الآخرين مرتبطة بإنتاجيته، فقد يصبح مهمشا أو يُنظر إليه باعتباره عبئا، أما إذا اعترفوا بأن كرامته لا تتوقف على قدرته

على الإنتاج، فإنهم سيواصلون احترامه ومساندته. وتكمن قيمة أطروحة كانط في أنها تقدم أساسا أخلاقيا للدفاع عن كرامة الإنسان وحقوقه، وترفض اختزال الأشخاص في وظائفهم الاقتصادية أو الاجتماعية، كما تضع حدا لاستغلال الإنسان باسم المصلحة أو الربح أو النجاح. وهي تتيح لنا أيضا نقد الممارسات التي تجعل قيمة الفرد مرتبطة بمردوديته أو قدرته على المنافسة، وتؤكد أن احترام الإنسان يجب أن يكون مبدأ موجها للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. غير أن هذا الموقف لا يعني أن جميع الأشخاص متساوون في القدرات أو الكفاءات أو الأدوار، بل يعني أن اختلافاتهم لا تبرر التمييز بينهم في كرامتهم الأساسية. وهكذا، فإن الأطروحة الكانطية تدافع عن مبدأ جوهري مفاده أن الإنسان قد يكون وسيلة لتحقيق بعض الغايات المشروعة، لكنه لا يجوز أن يُختزل في ذلك أبدا؛ لأن قيمته لا تنبع أساسا مما يملكه أو ينتجه أو يقدمه للآخرين، وإنما من كونه شخصا يستحق الاحترام لذاته.

المناقشة :

مناقشة نص إيمانويل كانط: قيمة الشخص

موقف إيمانويل كانط: كرامة الشخص وكونه غاية في ذاته

يؤسس إيمانويل كانط قيمة الشخص على كونه كائنًا عاقلًا يمتلك كرامة مطلقة .فالأشياء يمكن استعمالها لتحقيق غايات معينة، ولذلك تكون قيمتها نسبية ومشروطة بما تقدمه من منفعة، أما الإنسان فلا يمكن اختزاله في مجرد وسيلة، لأنه غاية في ذاته .ومن هنا يضع كانط مبدأ أخلاقيًا يقتضي معاملة الإنسانية، سواء في شخصنا أو في شخص غيرنا، دائمًا كغاية وليس مجرد وسيلة. فقيمة الشخص، وفق هذا التصور، لا تتحدد بثروته أو مكانته الاجتماعية أو قدراته الجسدية، وإنما بكونه كائنًا عاقلًا قادرًا على الإرادة والتصرف وفق القانون الأخلاقي. ولذلك تشكل الكرامة والاحترام أساس القيمة الأخلاقية للشخص.

موقف إيمانويل مونييه: قيمة الشخص في الحرية والالتزام والانفتاح على الغير

يوسع إيمانويل مونييه مسألة قيمة الشخص من خلال فلسفته الشخصانية .فالشخص عنده ليس فردًا منعزلًا ومغلقًا على ذاته، وإنما كائن يتميز بالحرية والمسؤولية والقدرة على تجاوز ذاته والانفتاح على الآخرين. ولذلك يرفض مونييه النزعة الفردانية التي تجعل الإنسان مكتفيًا بذاته ومنفصلًا عن الجماعة.

إن قيمة الشخص لا تظهر فقط في امتلاكه كرامة خاصة، وإنما تتحقق أيضًا من خلال الالتزام؛ أي تحمل الشخص لمسؤوليته تجاه ذاته والآخرين والمجتمع. فالشخص يبني ذاته من خلال أفعاله واختياراته وعلاقاته بالغير. ومن ثم تصبح الحرية الحقيقية حرية مسؤولة لا تنفصل عن التواصل والمشاركة والالتزام.

وهكذا، إذا كان كانط يؤكد الكرامة الذاتية للشخص، فإن مونييه يبرز أن هذه القيمة تتجسد عمليًا من خلال الحرية والمسؤولية والالتزام والانفتاح على الغير.

موقف جورج غوسدورف: قيمة الشخص في التواصل والمشاركة

يؤكد جورج غوسدورف أن الإنسان لا يستطيع تحقيق ذاته بوصفه شخصًا في حالة العزلة والانغلاق، لأن وجوده الإنساني يتشكل داخل عالم مشترك مع الآخرين. فالغير ليس مجرد شخص يوجد إلى جانب الأنا، وإنما يمثل طرفًا أساسيًا في تجربة الإنسان وفي بناء وجوده الشخصي.

ومن هنا تكتسب المشاركة والتواصل أهمية أساسية؛ فالشخص يخرج من انغلاقه على ذاته عندما يدخل في علاقة مع الآخرين تقوم على الحوار والتبادل والتعاون. ولا ينبغي أن تكون العلاقة بالغير قائمة على السيطرة أو تحويل الآخر إلى مجرد أداة، بل على الاعتراف بوجوده ومشاركته عالمًا إنسانيًا مشتركًا.

وبذلك يلتقي غوسدورف مع كانط في رفض اختزال الإنسان إلى مجرد وسيلة، لكنه يركز أكثر على البعد العلائقي لقيمة الشخص؛ فقيمة الشخص لا تظهر فقط في كرامته الفردية، وإنما أيضًا في قدرته على التواصل والمشاركة وبناء علاقات إنسانية مع الآخرين.

موقف أكسل هونيث: قيمة الشخص والاعتراف المتبادل

يمنح أكسل هونيث مسألة قيمة الشخص بعدًا اجتماعيًا من خلال نظرية الاعتراف .فالإنسان يحتاج إلى اعتراف الآخرين به حتى يستطيع تكوين علاقة إيجابية بذاته والشعور بقيمته داخل المجتمع. لذلك لا يكفي أن نقول إن الشخص يمتلك كرامة في ذاته، بل ينبغي أن تتجسد هذه الكرامة في علاقات ومؤسسات تعترف به وتحترمه.

ويميز هونيث بين ثلاثة أشكال أساسية للاعتراف :الحب والرعاية، اللذان يسمحان للفرد ببناء الثقة بالنفس؛ والاعتراف القانوني بالحقوق، الذي يجعل الشخص يشعر بأنه عضو حر ومساو للآخرين؛ والتقدير الاجتماعي، الذي يتمثل في الاعتراف بقدرات الفرد ومساهمته داخل المجتمع.

وفي المقابل، تمثل الإهانة والتمييز والإقصاء والحرمان من الحقوق أشكالًا مختلفة من إنكار الاعتراف، لأنها تمنع الشخص من تحقيق علاقة إيجابية بذاته وبالمجتمع.

وهكذا يوسع هونيث التصور الكانطي للكرامة؛ فبينما يؤكد كانط أن الشخص يستحق الاحترام لكونه غاية في ذاته، يبين هونيث أن هذا الاحترام يجب أن يتحول إلى اعتراف فعلي ومتبادل داخل العلاقات الاجتماعية والقانونية.

تركيب عام

تكشف هذه المواقف عن تعدد الأبعاد التي تتأسس عليها قيمة الشخص. فقد جعل إيمانويل كانط الكرامة أساسًا أخلاقيًا مطلقًا لقيمة الإنسان، معتبرًا الشخص غاية في ذاته لا يجوز استعماله مجرد وسيلة. أما إيمانويل مونييه فقد أبرز أن الشخص لا يتحقق في العزلة، بل من خلال الحرية والمسؤولية والالتزام والانفتاح على الغير. وركز جورج غوسدورف على البعد العلائقي، معتبرًا أن التواصل والمشاركة يسمحان للشخص بالخروج من انغلاقه وبناء وجود إنساني مشترك. بينما أضاف أكسل هونيث بعدًا اجتماعيًا قائمًا على الاعتراف، موضحًا أن الشخص يحتاج إلى الحب والحقوق والتقدير الاجتماعي حتى تتحقق قيمته داخل المجتمع.

وهكذا يمكن النظر إلى قيمة الشخص باعتبارها ذات أبعاد متكاملة :كرامة أخلاقية عند كانط، وحرية والتزامًا عند مونييه، وتواصلًا ومشاركة عند غوسدورف، واعترافًا متبادلًا عند هونيث .وبذلك لا تقتصر قيمة الشخص على ما يمتلكه في ذاته، بل تتجسد أيضًا في طريقة حضوره مع الآخرين وفي أشكال الاحترام والتواصل والاعتراف التي تنظم الحياة الإنسانية المشتركة